الملك . . .

ديوان شعر للأستاذ محمود حسن اسماعيل

للأستاذ زكي طليمات

في عنوان هذا الديوان كفاء للدلالة على ما تضمنه ، ولن أجد أبلغ ما أقدم به مقالي عنه ، غير هذه العبارة التي أقتطعها من إهداء الشاعر شعره إلى سيد الكنانة وأمير البلاد .

« هذا هتاف الفن لأنوارك الجديدة في كل آفاق الحياة ، سكبته من دمي غناء يفيض للدنيا بحبك ، وينبض في جوانح الزمن بآيات وطنيتك »

وفي الحق أنه لهتاف يشق أجواز السماء ، أرسله الشاعر في تواجد الصوفي وفي نشوة الفتى الثابل ، فإذا الهتاف تارة تمتمات وتسابيح وترانيم تشع منها أضواء الروح ، وتارة أخرى إرنانات مدوية تشهر في الفضاء شهر السيوف ، تحي مقدم للبطل وتشيد بمفاخر البطولة ، وترفع رفع أعلام الأعياد ومشاعل الزينات .

ومباعث هذا الشعر مآثر (الفاروق) حفظه الله ، وقد فاضت به يداه في مناسبات ، فكانت أمن الخائفين والمروعين ، وأفراح المحزونين والمكروبين ، وبشائر الخير والفرج للمحرومين والصابرين . مآثر سجلها الشعر الموفق الآثر ، فإذا هي دستور للبر والإحسان ، في زمن قل فيه البر والإحسان ، فهبت النظم الاجتماعية تفرض على الغني أن يشارك الفقير في ماله ، وتقضي على المتخومين ذهباً وفضة بأن يخففوا مما ثقلت به بطونهم بأن يبذلوا مما بين أيديهم . ثم يشرق الشاعر إشراقة أخرى ، فإذا بالشعر بين يديه يحكي قولة الحق في (الفاروق) ، قولة تتلخص . . في أنه ملك بنفسه وبشعبه ، وليس ملكا لنفسه وبدون شعبه .

كرم الباعث الذي فجر الشعر عيونا ونبل ، كما طاب قول الشاعر ونبه .

١٩ . ٢٦

ولكل قصيدة في هذا الديوان مناسبتها ، وفي كل مناسبة تسجيل لمأثرة فاروقية ، هذا والقصيد يجري على غرار ما هو مألوف في شعر المدائح والمناسبات ، فهو عرض لمآثر من سيق الشعر في ركابه ، ثم تنوية بفعل هذه المآثر في كشف الغمة وزوال الكروب ، ثم رسم لأصداء هذه المآثر في نفوس متلقيها ...

ولو قصر شعر (محمود حسن اسماعيل) على هذا فحسب ، ولم يتجاوزه إلى ما هو أعرق في الشاعرية ، لقصر كلامنا على التنويه بشعر شاعر دفعه إخلاصه للبلاد إلى أن يصدر ديوانا يحمل اسمه الكريم ، فالمدائح وشعر المناسبات يتسم أكثره بفيض في المبالغة والاجتلاب ، وبوشي محمل بالتزاويق البيانية ، هذا والأدب العربي ، قديمه وحديثه ، ينوء بأحمال ثقيلة منه ، وما كان ليؤبه بهذا اللون من الشعر لو لم ينسب منه عرق رفيع يعتبر بحق من جيد الشعر مبنى ومعنى ، إذ يحمل طابع الصدق والاعتدال في التعبير ، ويلمع بإشراقات الحذق الفني في الصياغة والأسلوب ، ويتسم بالاتزان ، إذ فيه يعوض الشاعر عن شطحاته وهو يزف آيات المديح ، غوص على المعاني وتوفيق في استخراج طريفها ولطيفها ، ويتجاوز استيحاؤه صفات الممدوح إلى الاستلهام من القيم الإنسانية العامة ، فتكون للشاعر التفاتات تجيء من غير افتعال وكأنها هجس الخاطر ، فتشد إلى القصيد صورا أخرى من الحياة لا تلبث أن تزوده بجديد من المعاني ، فيتسع أفق الشاعر فيما يقول ، وتعظم متعة القارىء أو المستمع له ، وكأن الشاعرية الدافقة في نفس الشاعر لا يكفيها محور واحد تدور عليه ، فهي تتجاوزه قادرة إلى سواه من غير أن تجعل العرض يطغى على الجوهر ، وبدون أن تنفصم عرى التلاحم بين المعاني الأصيلة والواردة عليها .

والمتأمل شعر (محمود حسن إسماعيل) في هذا الديوان ، لا يعدم موطناً يطالعه بهذا .

انظر إلى قصيدته (نور من الله) ، فبعد مديح في الفاروق يبلغ ذروته في هذا البيت :

« تملك في شباب العمر تحسبه
لحكمة الرأي تحدوه القداسات »

إذ بك منقول على جناح خياله ، وقد يمم شطر الأهرام في

لفتة لطيفة ، ليحيط بك فى رحاب البطل (إبراهـــيم) ، وإذ بالشاعر يقول :

أهرام خوفو تهاب الجن ساحتها ... كأنما هى للأقدار خيمات
مخيمات وأسرار السماء بها ... كأنما هى للأفلاك جارات
وخيل رمسيس مازالت سنابكها ... تلقى حديث الوغى عنها الفتوحات
والسيف فى يد إبراهيم ما فتئت ... للنصر ترعش حديه الخيالات
واد أشم العلى ، مرت به حقب ... أيامهن بكف الدهر رايات

واسمع الشاعر يقول فى قصيدته (تشهد الفأس) ...

قل لسارين مشـوا فوق الثرى
بقلوب كخطاهم داميات . . .
ومشت أيامهن بين الورى
فى ظلام البؤس حيرى حافيات
أسبغ التـــاج عليكم نوره
ورعاكم وحباكم بره
فاطرحوا الشكوى وإن طال الثرى
أيقظ الله لكم جفن الحياة .
فى عبير الحقل أو رمل الهجير
تشهـــد الفأس على آلامكم

الخ . . . ما ورد فى هذه القصيدة . . . . . .

هذا شعر يتفجر من القلب وليس مما يخرج من اللسان ، من قلب رجل لابس حياة الفلاح وشاهد حفاه وعريه ، وصلى فى محراب أحزانه وآلامه ، واشترك فى ضراعاته . وفى هذا الشعر ما ينبىء عن أن قائله إنما يصدر مخلصاً عما يحسه ، وليس عن هوى فى زف الكلام الموزون الموشى ، ومثل هذا الشعر يأسر القارىء ويغريه بإعادة تلاوته ، لا لجودة الحبكة فى الصياغة ، ولا لطف التعبير ، ولكن لما يتمشى فى جنبات الشعر من نفس حار يشع منه الصدق واليقين .

وفى الديوان ما يماثل هذا ، ولكن فى ألوان أخرى من المعانى والمناسبات ، فلا عجب أن يجىء أكثر الشعر فيه ، تارة زفرات وتنهدات ، وأخرى ابتهالات وتمنيات ، والشاعر فى كل هذا فتى الريف ، سليل حملة الفؤوس ، وعروس شعره جنية من الريف لها خفر أهله ، تطيف به وتهوم فوق رأسه فى دلال المرأة اللعوب ، إن أقبل عليها أدبرت ، وإن أغضى عنها أقبلت ، كما وصفها الشاعر فى قصيدته (تكلم أيها البحر) .

ومحمود حسن إسماعيل قد عرفناه بهذا ولهذا فى ديوانه الأول « أغانى الكوخ » ، وهى قصائد يجرى فيها الشعر جريان السيل الجارف ، ويحمل من الريف غبار مساربه ، وعبقة حقوله ، كما يتنفس عن ألم الفلاح وسقم العامل ، ويصف وصف المستبطن دخائل النفوس ، من طرحتهم عبودية الفقر والجهالة فى كهوف النسيان .

ونرى أن الصلة بين ديوانه « أغانى الكوخ » وبين ديوانه الجديد « الملك » قائمة على أحسن حال من حيث الباعث اللاشعورى لاطلاق شعره ، بيد أن الشعر فى الديوان الجديد يتسم بمسحة ظاهرة من الاناقة ولا أقول التأنق ، لأنه يحنى الرأس فى ساحة المليك ، فإذا الشاعر الذى عرفناه فى (أغانيه) وغيرها يهدر هدر الأمواج الصاخبة وينطلق بيانه كالسيل العرم الذى يحمل من الأرض كل ما يعلوها ، يستحيل نهراً صافى الأديم ، رقراق الماء ، ينساب منمقا حوافيه على إيقاع نسمات الأصيل ...

فإذا افتقدنا فى هذا الشعر الجديد الفورة المزبدة ، فقد أعاضنا الشاعر عنها الهدءة المؤنسة الموحية ، ولهذه كما لتلك ، جمال ودلال ، ومذاق ومتعة .

ولا عجب أن يبدو محمود حسن إسماعيل أنيقاً منمقاً فى شعره هذا ، فأى امرىء لايصلح من هندامه وينفض عنه ماعسى أن يكون عالقاً به ويأخذ بأسباب الأناقة والنظام ، ما دام يعرف أنه سيمثل بين يدى مليك البلاد ! !

وثمت ظاهرة جديرة بالتوضيح فى هذا الديوان ، فإن أبياتاً من الشعر قد وردت وهى تأبى ألا تكشف عن معانيها إلا بعد ممانعة ومماطلة ، فهى تلوح ولا تفصح ، وتومىء ولا تبين . وقد يتوهم البعض أن هذا غموض أو إغراب من جانب الشاعر فى سوق المعانى ، وما هو كذلك ، وإنما هو طبع فى الشاعر يدفعه أحيانا — وقد يصدر فى هذا عن وعى أو فى غير وعى — إلى إيراد بعض من معانيه فى صيغة (التركيب[1]) أو الاجمال . فتكون مناوشة ومصاولة بين المعنى وذهن القارىء ذى النظر والتأمل ، وتكون متعة ذهنية دونها كل متعة يحسها القارىء بعد أن يغانمه الشعر فى الكشف عن كل مفاتنه عند النظرة المعجلى .

(١) أى الذهاب فى التعبير والمعالجة من البسيط إلى المركب Synthèse وهذا نقيض (التحليل) Analyse